ملامح من علم الكلام في عصر الإمام الصادق عليه السلام

الأستاذ علي الصافي الإصفهاني(*)

(*) أستاذٌ في الحوزة العلمية_ إيران / إصفهان.

الملخّص

يهدف هذا البحث الموجز إلى تحليل شطرٍ من المعارف الكلاميّة عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام استنادًا إلى وصاياه وتعاليمه القيّمة، التي تُعدّ من أبرز تجليات علومه الكاملة، وفيوضه المتكاملة، وآثاره الخالدة، ومآثره الباقية. وذلك في سياق الحديث المستفيض عن شخصيّة الإمام الصادق عليه السلام ومكانته السامية، الذي يعترف بعمقها واتّساعها حتى الخصوم والمخالفون، حيث عجز عن وصفه الواصفون، وتحيّر في فضائله وسعة علومه الأوّلون والآخرون، وتخرّج في مدرسته الأجلاّء، وامتلأت الصحف والأوراق بشرح يسيرٍ من بحار فضائله ومقاماته.

يسعى البحث إلى إبراز أهميّة الكلام والعقيدة في فكر الإمام الصادق عليه السلام، مع التركيز على جوانب مختلفة.

الكلمات المفتاحيّة:

الإمام الصادق عليه السلام، الكلام، المناظرات الكلاميّة، الوصايا.

مقدّمة

الحديث حول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بعيد المدى، وواسع النطاق، وقد عجز عن وصفه الواصفون، وتحيّر في فضائله وسعة علومه الأولون والآخرون. وما نقول في مدح إمامٍ مدحه الأعداء، وتخرّج في مدرسته الأجلاء، وامتلأت الصحف والأوراق بشرحٍ يسيرٍ من بحار فضائله و مقاماته.

نقول مقدمةً، لا يخفى أنّ علم الكلام علم المعارف والعقائد، وهو المتكفّل لبيان معتقدات الإنسان، وما يبني عليه عقائده القلبيّة قبل الدخول إلى مرحلة العمل بالأركان، إذ لا عمل إلّا بنيةٍ، ولا اعتبار بالعمل من دون الاعتقاد والعقد القلبي. فالعقيدة هي بناءٌ لكلّ عملٍ عباديّ، وغير عباديّ، ولعلّه إلى هذا يشير قوله - سبحانه : ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [١]، ومعناه - حسب ما نفهم - أنّ قيمة عملِ كلّ عاملٍ باعتبار ما ورائه من العقيدة الراسخة والثابتة التي هو عليها، ويعمل على وفقها، وهي الداعية المحركة نحو العمل.

وقد يسمّى هذا العلم بعلم العقائد والمعارف، ويطلق عليه أيضًا (**الفقه الأكبر**)؛ لأنّ علم الكلام بمنزلة أمٍّ لعلم الفقه، والركن الأساس للمكلّف، فإنّه لولا العقيدة لم يوجد عمل؛ ولذلك قُدِّم علمُ الكلام على علم الفقه رتبةً.

علل تطوّر الأبحاث الكلاميّة في عصر الإمام الصادق عليه السلام

العلل والأسباب التي أوجبت وأحدثت الآراء المتفاوتة والأفكار المختلفة والمتشتّته في الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله أمور:

الأول: غصب الخلافة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ومصادرة مقاماتهم

[١] سورة المائدة، الآية ٢٧.

الدينيّة والسياسيّة، وشؤونهم الاجتماعيّة، وعزلهم عن المجتمع، ومنع الناس من الرجوع إليهم، والأخذ عنهم، والاستفادة منهم، وإجراء سياسة منع نقل الحديث وكتابته وتقييد العلم.

الثاني: جهل الخلفاء الغاصبين بالأحكام، والإجابة بما يصدر من عند أنفسهم بغير الحقّ، والقول بغير ما أنزل الله تعالى.

الثالث: حدوث المذاهب المختلفة، والآراء المتكاثرة والمتضاربة، وإجابة المسائل الحديثة والمستحدثة بالظنون والاستحسانات، والقياس والفتاوى الباطلة، والقول بغير علم.

الرابع: قصة الفتوحات، وإيجاد العلقة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصادية مع البلاد المختلفة، والاختلاط بثقافاتهم وأفكارهم؛ وتسببّ ذلك بتشعّب الآراء في العالم الاسلامي، وتطوّر علم الكلام، والبحث والمناظرات والمجادلات، والأسئلة والإجوبة

الخامس: وضع الخلفاء الأولين وخلفاء الدولة الأمويّة والعبّاسيّة في قبال أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ تامٍ في جميع المسائل الشرعيّة وغيرها، واهتمامهم بمخالفة مع الأئمّة المعصومين (صلوات الله عليهم) في جميع الأمور والمسائل، فكانوا مهتمّين بالعمل على خلاف ما كان يقول أمير المؤمنين عليه السلام، ويعمل؛ لذلك نرى أنّ فقهاء العامّة يفتون بخلاف حكم أمير المؤمنين عليه السلام وفقهه، كما حكموا ببطلان نكاح الوكيل المعزول الذي لا يعلم بعزله، وقد حكم أمير المؤمنين عليه السلام بصحته في رواية علاء بن سيّابة[1] في بحث البيع الفضولي. «روى محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ اَلنَّاسِ حَقٌّ وَلاَ صَوَابٌ، وَلاَ أَحَدٌ مِنَ اَلنَّاسِ يَقْضِي بِقَضَاءِ حَقٍّ إِلاَّ مَا خَرَجَ مِنَّا أَهْلَ اَلْبَيْتِ، فَإِذَا تَشَعَّبَتْ بِهِمُ اَلْأُمُورُ**

[١] علاء بن سيابة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلٍ وكّلَ آخر في تزويج امرأةٍ، فخرج الأليف يلتمسها فأتاها الآخر فزوّجها من غير علم الأليف، قال: «النكاح جائز».

كَانَ اَلْخَطَاءُ مِنْهُمْ وَاَلصَّوَابُ مِنْ قِبَلِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ اَلسَّلاَمُ)» [١].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة: «**شَرِّقَا وَغَرِّبَا فَلاَ تَجِدَانِ عِلْمًا صَحِيحًا إِلَّا شَيْئًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**» [٢].

أمير المؤمنين عليه السلام والبحوث الكلاميّة

إنّ أوّل من تصدّى للبحوث الكلاميّة والمناظرات والمجادلة بالتي هي أحسن هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ تصدّى لإيراد الخطب العلميّة والمناظرات والمباحثات والمكتوبات، وبيّن المعارف، وأوضح الحقّ على أساس الاستدلال القويم، والصراط المستقيم، والأدلة العقلائيّة المقبولة، وما يرتبط بمسائل الذات والصفات، ومسألة القدم والحدوث، والبساطة والتركيب، والوحدة والكثرة، ومسألة النبوة والخلافة والإمامة، كما ورد في زيارة الأمير عليه السلام يوم الغدير: «**أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّه، وَصَلَّى لَهُ وَجَاهَدَ، وَأَبْدى صَفْحَتَهُ فِي دَارِ الشِّرْكِ، وَالْأَرْضُ مَشْحُونَةٌ ضَلالَةً، وَالشَّيْطَانُ يُعْبَدُ جَهْرَةً**»[٣].

ثم قال عليه السلام عن نفسه المقدّسة: «**إنيّ لَعَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ أَلْفُظُهُ لَفظًا**»[٤]. وهذا الوضوح والصراحة مطلق بمعنى الوضوح والظهور في عمله وفي كلماته وخطبه، بحيث لم يكن أمره مشتبهًا على أحد، وإنّما خالفه من خالفه طمعًا وحسدًا وعنادًا، كيف وقد شهد بفضله الأعداء، وهذا الأمر من اختصاصاته (صلوات الله عليه) حيث جعله الله - سبحانه - واضح المقصد، مُبيَّن الأمر، مقبول الجهات، وهذا هو معنى قول الإمام علي الهادي عليه السلام في زيارة الغدير مخاطبًا جده أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَأَلْزَمَ أَعْدَاءَكَ الْحُجَّةَ بِقَتْلِهِمْ إِيَّاكَ، لِتَكُونَ الْحُجَّةُ لَكَ عَلَيْهِمْ، مَعَ**

[١] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٣٩٩، ح ١.

[٢] المصدر نفسه، ١/ ٣٩٩ ح ٣.

[٣] القمي، عباس، مفاتيح الجنان، زيارة الأمير يوم الغدير.

[٤] الشريف الرضي، محمد بن الحسين، خطبه ٩٧، نهج البلاغة.

مَا لَكَ مِنَ الْحُجَجِ الْبَالِغَةِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ»[١]. وشرح هذه العبارة من الزيارة الشريفة يحتاج إلى مزيد بيانٍ وبسط لسانٍ، ليس ههنا محلّه ولا مجاله.

والدليل على وضوح الحق عند أمير المؤمنين عليه السلام هو ما بيّنه الإمام الهادي عليه السلام في زيارة الغدير: «**فَمَا تَنَاقَضَتْ أَفْعَالُكَ، وَلا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُكَ، وَلا تَقَلَّبَتْ أَحْوَالُكَ**»[٢]. وهذا حقيقة الصدّيق الأكبر حيث يُصدق قولُه فعلَه، وفعلُهُ قولَه، وأبان الحق «**مولاي أنت الحجّة البالغة، والمحجّة الواضحة، والنعمة السابغة، والبرهان المنير**»[٣]

البحوث الكلاميّة حول مسألة الإمامة

أصبحت المسائل العلميّة والمطالب العقليّة ذات اختلافٍ كثيرٍ في الاسلام بعد النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، منها البحث حول الذات والصفات، والحدوث والقدم، والجبر والتفويض، وكيفيّة الخلق، والبساطة والتركيب، والعلم والجهل، وعصمة الأنبياء وغيرها، لكن الذي يبدو أنّ أهم المسائل الكلاميّة التي وقع فيه اختلافٌ عظيمٌ، وأقيمت لها الحروب، وسفكت بها الدماء مسألة الإمامة والخلافة، والتصدّي لأمر الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ظهور الخوارج: والاختلاف العمدة في الإمامة ما جرى في وقعة صفين في سنة ٣٧ من الهجرة حيث آل الأمر إلى الحكمية، ووافقوا على رأي أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام راضيًا بذلك فأجبروه عليه كرهًا، ثم ظهر من بعد ذلك فتنة الخوارج فخالفوا أمير المؤمنين عليه السلام مدعين أنّه خالف حكم الكتاب، فأحدثوا مذهبًا جديدًا بآراء فاسدةٍ منحرفةٍ، وذهبوا إلى كفر من يرتكب الذنوب الكبائر، وهدر دمه.

---

[١]. مفاتيح الجنان، زيارة الأمير يوم الغدير.

[٢] المصدر نفسه.

[٣] القمي، عباس، بحار الأنوار، ٣٦٥/٩٧.

ظهور المعتزلة: من بعد حدوث فتنة الخوارج قام الحسن البصري بمخالفتهم، وطرح الأبحاث الكلاميّة وذهب إلى عدم كفر من يرتكب الكبائر، وأنّه مؤمنٌ فاسقٌ ومنافق. ثم خالفه تلميذه واصل بن عطا، واعتزل عن مجلس درسه، وقال بأنّ مرتكب الكبائر ليس بمؤمنٍ ولا كافر، بل هو فاسق، وجعل الفسق منزلةً ثالثة بين المنزلتين وأسّس المذهب المعتزلي

ظهور الاشاعره: وأبو الحسن الأشعري البصري وهو تلميذ أبي علي الجبائي بعد لقائه مع أحمد بن حنبل، والأخذ منه انقلب وتبدّل رأيه، وخالف مذهب الاعتزال بعد ما كان من متابعيه طوال أربعين سنة، وأسس المذهب الأشعري، وذهب إلى آراء خاصّة في المسائل الكلاميّة ذات أهميّةٍ كبيرة، كمسألة القضاء والقدر، ومسألة الجبر والاختيار، وحقيقة العدل والظلم، ومسألة الحسن والقبح. وتولّدت منه مذاهب أخرى كالجبريّة والقدريّة.

بنو أميّة ومسألة الجبر: قام الأمويّون بعد الوصول إلى السلطة بتحريف المعارف والعقائد، ونشر ما هو خلاف مذهب أهل بيت النبيّ (صلّى الله عليه وآله) بين المسلمين، ومن ذلك مسألة الجبر، حيث إنّ الأمويين بغرض التوجيه والدفاع عن ظلمهم، وسفكهم الدماء، ونهبهم الأموال، وهتكهم الأعراض قاموا بتحكيم عقيدة الجبر الفاسدة، فروّجوا لمقولة أنّ كلّ ما يكون ويصدر من العبد، هو بإرادة الله تعالى، بلا تدّخل من العبد فيه.

وإنّ يزيد بن معاوية يصرّح بأنّ خلافته أمرٌ أراده الله تعالى له، وأنّ قتل الحسين (صلوات الله عليه)، كان أمرًا مقدرًا أراده الله سبحانه، ولم يكن باختيارٍ من يزيد. كما أنّ ابن زياد لما نظر إلى الإمام عليّ السجّاد عليه السلام وسأل عنه، وقيل له هذا عليّ بن الحسين، قال: أليس قد قتل اللهُ عليّ بن الحسين؟![1] وقام بإسناد الفعل إلى الله تعالى لتبرئة نفسه.

[١] المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد، ١١٦/٢ .

فأجابه الإمام زين العابدين عليه السلام: «كان لي أخٌ يُدعى عليّ بن الحسين، قتله الناس» [١]. قال ابن زياد: بل قتله الله. فأجابه الإمام عليه السلام: «**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**» [٢].

وهنا بحثٌ لطيفٌ: لماذا أجابه الإمام السجاد عليه السلام، والحال أنّ ابن زياد لم يخاطب الإمام، وإنّما سأل أصحابه. الجواب أنّ الإمام عليه السلام لما رأى هذا الفكر المنحرف من ابن زياد، وأنّ هذا الطاغية يريد إضلال الناس بكلامه السخيف أجابه حتى يَرُدُّ عليه كلامه، ويجيبه ببرهانٍ جليّ من الكتاب، وهذا بحثٌ كلاميٌّ من الإمام زين العابدين عليه السلام بشكلٍ غير مباشر، استنادًا إلى القرآن العظيم. وقد فهم ذلك ابن زياد فَعَلِم عجزَه عن التكلّم مع الإمام عليه السلام في هذا البحث الكلامي؛ ولذلك غضب وقال: «**أَبِكَ جرأة على ردّ كلامي؟!**»، وأمر بقتل الإمام السجّاد عليه السلام لولا العقيلة زينب الكبرى عليها السلام حيث دافعت عن ابن أخيها، وألقت بنفسها عليه دفاعًا عنه (صلوات الله عليه).

دور الإمام الصادق عليه السلام في المناظرات الكلاميّة

لما بلغ الأمر إلى عصر الإمام الصادق عليه السلام حصل التطوّر في علم الكلام، واتّسعت دائرة المباحث الكلاميّة، وجاء دور المناظرات والمباحثات، وانقلب العصر إلى عصر المحادثات، وظهور الأسئلة والأجوبة، والمذاهب الكثيرة، والآراء العجيبة.

ولكنَّ مدرستي المعتزلة والأشاعرة في هذا العصر بلغا إلى ما بلغا من الجلاء والظهور والسيطرة على الأجواء العلميّة، وأصبحا أهم المدارس الفكريّة الإسلاميّة، فما من عالمٍ أو باحثٍ إلّا وكان معتزليًّا أو أشعريًّا، وهاتان المدرستان كان لهما الدور الأساس في المجالات العلميّة آنذاك، وبلغا ذروة الكمال في عصر الإمام الصادق عليه السلام، وإن لم يبلغا إلى مستوى المدرسة الكلاميّة الشيعيّة.

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] المصدر الزمر، الآية ٤٢.

شروط المناظرة الكلامية عند الإمام الصادق عليه السلام

تدلّ الروايات الشريفة أنّ للمناظرة الكلاميّة شروطًا يلزم أن يكون الباحث الكلاميّ جامعًا لها، وهي:

١- أن يكون عارفًا بمذهب أهل البيت عليهم السلام، وعالمًا بروايتهم وكلماتهم؛ حتى يبني في مباحثاته على الحجّة الشرعيّة والمباني المنصوصة.

٢- أن يكون خبيراً بفنّ البحث والكلام وأساليب المناظرة؛ حتى لا يصير محجوجًا أو مغلوبًا، وليعرف كيف يطير إذا وقع.

٣- أن لا يخالف الحقّ إطلاقًا خوفًا من غلبة الخصم، ويعرف كيف يستدلّ حتى لا يخاصمه الخصم بما يلزم عليه قبوله.

٤- أن يتجنّب الجدال والمراء، ورفع الصوت والنزاع.

نموذج من مناظرة الإمام الصادق عليه السلام الكلاميّة

«عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فورد عليه رجلٌ من أهل الشام، فقال: إنيّ رجلٌ صاحب كلامٍ وفقهٍ وفرائض، وقد جئتُ لمناظرةِ أصحابِك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: كلامك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، أو من عندك؟

فقال: من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ومن عندي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت إذًا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فسمعت الوحي عن الله (عزَّ وجلَّ) يخبرك؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا.

فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ، فقال: يا يونس بن يعقوب، هذا قد خصمَ نفسَه قبل أن يتكلّم.

قلت: جعلت فداك إنيّ سمعت تنهى عن الكلام، وتقول: ويلٌ لأصحاب الكلام ...

فقال أبو عبد الله عليه السلام إنّما قلت: فويل لهم إن تركوا ما أقول، وذهبوا إلى ما يريدون.

ثم قال: أخُرُج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلّمين فأدخِله.

قال: فأدخلت حمران بن أعين، والأحول، وهشام بن سالم، وقيس بن الماصر، وكان عندي أحسنهم كلامًا، وكان قد تعلّم الكلام من علي بن الحسين عليه السلام، فلمّا استقرّ بنا المجلس - وكان أبو عبد الله عليه السلام قبل الحج يستقّر أيامًا في جبلٍ في طرف الحرم في فازةٍ له[١] - فأخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من فازته، فقال: هشام، وربِّ الكعبة. فورد هشام بن الحكم»[٢].

والمستفاد من هذه المباحثة الكلاميّة نكات:

الأولى: أنّ الإمام الصادق عليه السلام سأل الخصم عن مصدر كلامه، ومبدأ آرائه، وهذا يكشف عن أنّه يلزم في البحث الكلامي أن يكون مبنى الباحث معلومًا، وأنّه من أين يتكلّم، وعلامَ يستند؟ لكي يمكن إلزامه وإفحامه.

الثانية: بينَّ الإمام عليه السلام ملازمةً عقليّةً بين الشركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين أن يكون له كلامٌ من نفسه، وكلامٌ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وبين وجوب طاعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ووجوب طاعة صاحب الكلام، فأفسد الإمام عليه السلام على الخصم جميع مبانيه قبل الورود في جزئيّات الموضوع.

---

[١] الخيمة الصغيرة.

[٢] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١ / ١٧١، ح ٤.

وروي أيضًا أنّه: «ذكر عند الصادق عليه السلام: الجدال في الدين، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام قد نهوا عنه. فقال الصادق عليه السلام: «لم يَنْهَ عنه مطلقًا؛ لكنّه نهى عن الجدال بغير التي هي أحسن، أما تسمعون الله يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهلَ ٱلكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحسَنُ﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٢].

فالجدال بالتي هي أحسن قد قرنه العلماء بالدين، والجدال بغير التي هي أحسن محرّم حرّمه الله تعالى على شيعتنا، وكيف يحرّم الله الجدال جملة، وهو يقول: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[٣] وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤]، فجعل علم الصدق والإيمان بالبرهان، وهل يؤتى بالبرهان إلّا الجدال بالتي هي أحسن.

قيل: يا ابن رسول الله فما الجدال بالتي هي أحسن، والتي ليست بأحسن؟

قال: أمّا الجدال بغير التي هي أحسن أن تجادل مبطلاً، فيورد عليك باطلاً، فلا ترّده بحجةٍ قد نصبها الله تعالى، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقًّا يريد ذلك المبطل أنْ يعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك حجّة؛ لأنّك لا تدري كيف المخلص منه، فذلك حرامٌ على شيعتنا أن يصيروا فتنةً على ضعفاء إخوانهم، وعلى المبطلين... وأما الجدال بالتي هي أحسن فهو ما أمر الله تعالى به نبيّه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت وإحياءه له...»[٥].

بيّن الإمام الصادق عليه السلام الطريقة المرضية والسبيل الشرعيّة في البحث

[١] سورة العنكبوت، الآية ٤٦.

[٢] سورة النحل، الآية ١٢٥.

[٣] سورة البقره، الآية ١١١.

[٤] سورة البقرة، الآية ١١١.

[٥] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢ / ١٢٥

والجدال الكلامي ونهى عن أمرين في البحث الكلامي:

١- الاستناد إلى ما ليس بحجّةٍ شرعيّةٍ بغاية دفع الخصم بأيّ طريقٍ ممكن.

٢- ردّ الكلام الحقّ الذي استدلّ به الخصم خوفًا من غلبته. فإنّ ذلك يؤدّي إلى إيقاع الفتنة بين أهلّ الحق. ونرى أنّ تلميذ الإمام الصادق عليه السلام وخريج مدرسته الكلاميّة العليا هشام بن حكم - الباحث الكلامي المعروف - يناظر ويباحث على هذا المنهج الصحيح والمهناج الصريح، ويستدلّ بما هو المقبول عرفًا وشرعًا وعقلاً، وهكذا كانت تربية الإمام جعفر بن محمد عليه السلام لتلاميذه.

هشام بن الحكم ومنزلته العلميّة والمعرفيّة عند الإمام الصادق عليه السلام

هشام بن الحكم من أفضل تلاميذ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، وكان من كبار الأعلام، ومن أعاظم أئمّة الكلام، ومن خاصّة أصحاب الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، وكان جامعًا للعلوم العقليّة والنقلية، سريع الفهم، مرتجل الجواب، حسن البيان، من أكبر علماء عصره في علم الكلام ومعرفة العقائد.

غضب هارون الرشيد منه بسبب اعتقاده بولاية أهل البيت عليهم السلام، وقوّة مناظراته، فأمر بمطاردته والفتك به، لذلك هرب إلى الكوفة، وبقي هناك حتى توفي بسبب مرضٍ ودُفنَ فيها سنة ١٧٩ هـ. قال الإمام الرضا عليه السلام: «رحمَ اللهُ هشامَ بن الحكم؛ كان ناصرًا لنا بلسانه وقلبه ويده»[١].

ولمّا كان هشام عالمًا ومناظرًا كان يسعى للحصول على الأجوبة للأسئلة التي توجّه له، فيقصد الإمام الصادق عليه السلام لأجل ذلك، والإمام عليه السلام كان يجيبه بسعة صدرٍ، والشاهد فى ذلك القصة الآتية: جاء ابن أبي العوجاء ـ وهو أحد المحلدين وممن يثير الشبهات على الإسلام ـ وسأل عن تعدّد الزوجات، وقال مستهزئًا: يقول الله فى كتابكم ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ**

[١] الكشي، محمد بن عمر، اختيار معرفة الرجال، ٢٧٠، ش ٤٨٦.

خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [١]. وأيضًا وردت في آيةٍ أخرى: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** [٢]، فكيف يمكن الجمع بين هذه الآيات؟ وذلك بالنظر إلى الآية الثانية نفهم أنّ التعدّد ممنوعٌ؛ لأنّه مشروطٌ بالعدل، واذا كان العدل غير ممكنٍ، وخارج عن الاستطاعة؛ فالتعدد حرامٌ فى الإسلام. وهشام حينئذٍ كان ساكتًا، ولم يجبه، فقصد المدينة ليسأل الإمام الصادق عليه السلام، عن جوابٍ لشبهة ابن أبي العوجاء، وسأل ما المقصود بالعدل هنا؟

فأجابه عليه السلام: المقصود بالعدل في الآية الأولى هو في النفقة والمعاشرة والحقوق الزوجيّة، وهذا ليس بخارج عن الاستطاعة، وأمّا الآية الثانية **(و لن تستطيعوا)**، فهي تتحدّث عن العدل في المودّة القلبيّة، وهي خارجة عن القدرة والاستطاعة، فبالتالي التعدّد فى الزواج ليس حرامًا في الإسلام، بل جائز بشروطٍ معينّة. فلما قدم هشام بهذا الجواب على ابن أبي العوجا، وأخبره، قال: والله ما هذا من عندك!

فكانت أسئلته وأجوبته نموذجًا للتوحيد الصادق، والاستدلالات العلميّة الكلاميّة. وتفصيل هذا البحث في كتاب التوحيد الصدوق، وكتاب علل الشرايع فراجع.

[١] النساء: ٣.

[٢] النساء: ١٢٩.

نموذج من كلمات الأئمّة المعصومين في تكريم هشام بن الحكم، ومكانته الرفيعة

كان الإمام الصادق عليه السلام في يوم من الأيام جالسًا مع جمعٍ من أصحابه، وعندما جاء هشام وكان ما يزال شابًا، تقدّم نحوه الإمام، وأجلسه إلى جانبه في صدر المجلس، وأبدى له ابتسامةً واهتمامًا خاصًّا. حتى أنّ وجوه الحاضرين تغيرّت من شدّة الدهشة. وكان هذا التصرّف من الإمام دليلاً ناصعًا على المكانة العلمية العظيمة لهشام بن الحكم. فقال الإمام عليه السلام: «**هذا ناصِرنا بِقَلْبِهِ وَلِسانِهِ وَيَدِهِ**»[١].

ثم سأل الإمام هشامًا عن بعض الأمور العقائدية، فكان هشام يجيب باقناعٍ ويقين. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام «أَحْسَنْتَ يَا هِشَامُ، مَا أَحْسَنَ بَيَانَكَ حَتَّى كَأَنَّكَ قَدْ شَهِدْتَ وَحَضَرْتَ. قَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا تَلَقَّيْتُ هَذَا إِلاَّ مِنْكَ»[٢]. ثم سأل الامام عليه السلام الحاضرين: هل يوجد فيكم من يستطيع الردّ على شبهاتِ أعدائنا كما يفعل هشام؟

فقال هشام: نعم، أفهم الأمورَ بعمقٍ وأردُّ على الأعداءِ بدّقة. فقال الإمام عليه السلام: «**ثبّتك الله يا هشام إنّ الله قد هداك في هذا الطريق، واستَفَدتَ من هذا الهدى**». ويقول هشام بعد ذلك ما دفعتُ في موضعٍ مناظرة عن التوحيد إلاّ وخرجتُ منتصرًا، ولم يكسُرني أحدٌ في البحث عن معرفة الله والتوحيد.

وأيضًا في يوم من الأيام توجّه الإمام الصادق عليه السلام إلى هشام، وكان ذلك بحضور طلاب، وقال له: يا هشام، فى إحدى خطب رسول الله صلى الله عليه وآله قال لحسّان بن ثابت الأنصاري (الشاعر): «**لاتزال مؤيّدًا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك**»[٣].

[١] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ١٧٢-١٧٣

[٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مجلد ٤، صفحه ٥٣.

[٣] المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال، ٣/ ٢٩٤.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في حديث: «**مَا نَصَرَنَا أَحَدٌ مِثْلَ هِشَامِ بن الْحَكَمِ؛ لَقَدْ كَانَ يُذِيبُ الشَّبُهَاتِ بِكلامِهِ كَمَا يُذِيبُ الْمِلْحِ فِي الْمَاءِ**» [١].

وفي رجال الكشّي فى رواية: قال سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن هشام بن الحكم قال: «فقال رحمه الله كان عبدًا ناصحًا، وأُوذي من قبل أصحابه حسدًا منهم له» [٢].

هشام بن الحكم ومناظراته العلميّة

كان هشام بن الحكم بالإضافة إلى ذكائه اللامع ومعرفته الواسعة، صاحب بيان قوي، ولهجةٍ صريحةٍ، وشجاعًا في المناظرة، وكان يستخدم هذه النعمة الإلهيّة فى مناظراته مع العلماء والمحاججين من المخالفين، وكان الصادق عليه السلام يُعجَبُ بأسلوب المناظرة والبيان عند الهشام ويثني عليه دائمًا.

وفي أحد الأيام قال له عليه السلام: «**ياهشام أحبكَ؛ لِأَنَّكَ تُدَافِعُ عَنَّا بِلِسَانِكَ، كَمَا يُدَافِعُ النَّاسُ عَنْ أَحِبَّائِهِمْ بَيْنَ الْخُصُومِ**» [٣]. وكان يقول: إنّ طريقة استدلالِ هشام تشبهُ طريقةَ استدلالِ النبيّ إبراهيم، والنبيّ وموسى عليهما السلام [٤].

وأيضًا قال عليه السلام: «**هشام بن الحكم رائد حقّنا، وسائق قولنا، المؤيّد لصدقنا، والدامغ لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أثره تبعنا، ومن خالفه وألحد فيه، فقد عادانا وألحد فينا**» [٥].

---

[١] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٤٧ / ٣٦٩ ح ٤٩٠؛ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١ / ٣٩ ح ٥.

[٢] الكشي، محمد بن عمر، رجال الكشي، ص٤٩٨.

[٣] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٧ / ٣٧٠ ح ١٢٣ ؛ الكشي، محمد بن عمر، رجال الكشّي ٢ / ٥٤٧.

[٤] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي مجلد ١، كتاب الحجة، حديث ٣.

[٥] ابن شهرآشوب، محمد بن علي، معالم العلماء، ص١٢٨ .

قال الشيخ المفيد رحمه الله: "ما وردّ ذمٌ فيه". والعلاّمة آية الله العظمى السيّد الخوئي رحمه الله ذكر هشام بن الحكم في رجاله في أكثر من ثمانية عشرة رواية، وكان يثق به، ويستند إلى رواياته. وفي استمرار حديثه عن التقارير التاريخيّة قال إنّ بعض الروايات التي تضعّف هشامًا إمّا غير معتبرةٍ، وإمّا يمكن تأويلها، وهي غير معتمدةٍ عند أهل السنّة أيضًا.

وتلاميذ هشام بن الحكم كانوا من أعلام العلماء في الكلام والعقائد والحديث، وكانوا ينقلون كلامه ومناظراته ورواياته، ويعدّونه أستاذًا في علم الكلام، خصوصًا من خلال التزامه بالأصول العَقَديّة، ومحاربته للبدع والانحرافات، إذ كان يتصدّى لأهل الانحراف والزندقة، ويردُّ عليهم بشدّة. ومن هؤلاء التلاميذ، يونس بن عبد الرحمن، وهو من أعلام الشيعة، المجمع على وثاقته، وكان يقول: هشام كان شديدًا على المخالفين، وقد ألّفَتَ ثلاثين مؤلّفًا فى ردودِه ومناظراتِه. ومنهم علي بن إسماعيل الميثمي، وهو من المقربين من هشام وتلامذته حتى إنّه سجن بسببه، وله كتابٌ يُدعى (المجالس)، جمع فيه كلمات هشام وآرائهُ، وقدّم فيه وجوهًا بارزةً في علم الكلام فى تلك المرحلة. ومنهم أبو أحمد محمد بن أبي عمير، ونشيط بن صالح بن لفافة، وعبد العظيم الحسني، وهم من الشخصيات البارزة عند الشيعة (رحمهم الله تعالى)، الذين نقلوا رواياتٍ كثيرةً عن هشام بن الحكم، الذي نقلها عن الصادق والكاظم عليهما السلام لا سيّما روايات التوحيد والعقائد.

نموذج الكتب الكلاميّة التي خرجت من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام:

١- الردّ على أصحاب الطبايع،لهشام بن الحكم.

٢- الردّ على أرسطاطاليس في التوحيد، لهشام بن الحكم

٣- كتاب الدلالة على حدوث الأجسام، لهشام بن الحكم

٤- الرّد على الزنادقة، لهشام بن الحكم

٥- الردّ على الفلاسفة، للفضل بن شاذان

٦- الردّ على أرسطا طاليس لعلي بن أحمد الكوفي

٧- الردّ على أهل المنطق، للعباس بن محمد بن العباس

٨- الرّد على الفلاسفة، للعباس بن محمد بن العباس

٩- الرّد على من ردّ آثار الرسول واعتمد نتائج العقول، لهلال بن إبراهيم

١٠- مبتدأ الخلق، لمحمد بن أحمد بن إبراهيم الجعفري الكوفي.

١١- الردّ على أهل المنطق، لحسين بن موسى النوبختي

١٢- التوحيد الكبير والتوحيد الصغير، لحسين بن موسى النوبختي

هشام بن الحكم وطعنه على الفلاسفة

ينقل يونس بن عبد الرحمن أنّ هشام بن الحكم كان قد طعن على الفلاسفة شيئًا.

عن يونس بن عبد الرحمن قال: «كان يحيى بن خالد البرمكي قد وجد على هشام بن الحكم شيئًا من طعنه على الفلاسفة، وأحبّ أن يُغريَ به هارون؛ فقال لهارون: إنيّ قد استنبطت أمر هشام، فإذا هو يزعم أنّ لله إمامًا غيرك مفروضَ الطاعة، ويزعم أنّه لو أمره بالخروج لخرج. فقال هارون ليحيى: فاجمع عندك المتكلّمين، وأكون أنا من وراء الستر، فوجّه يحيى، فأشحن المجلس من المتكلّمين وكان فيهم صرار بن عمرو، وسليمان بن حريز، ورأس الجالوت. فتناظروا، وتقاطعوا، وتناهوا إلى شاذٍّ من الكلام، وكان ذلك عن يحيى حيلةً على هشام.

فقال يحيى: أترضون في ما بينكم هشامًا حكَمًا؟ قالوا: قد رضينا. فقال

يحيى: أنا أوجّه إليه، فأشخصه، فحكم لبعضهم على بعض، وكان من المحكومين عليه سليمان بن حزير، فحقدها على هشام. ثم إنّ يحيى سأل هشامًا أن يبين عن فساد اختيار الناس الإمام، وأنّ الإمامة في آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون غيرهم، فلما تكلّم هشام، وناظرهم تمعّر وجه هارون، وقال: شدّ يدك بهذا وأصحابه» [١].

ويظهر أنّ الطعن على الفلاسفة كان أمرًا مرغوبًا عنه عند رجال دولة بني العباس؛ لأنّهم كانوا يستخدمون هذا الفنّ في خلاف أهل البيت عليهم السلام.

ما هو معنى ما وردّ في ذمّ أهل علم الكلام

قد ورد بعض الأخبار عن الإمام الكاشف عن الآثار جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في ذمّ أهل الكلام: «عن الحضرمي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **يُهلك أصحاب الكلام، وينجو المسلّمون، إنّ المسلّمين هم النجباء. يقولون: هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، أما والله لو علموا كيف كان أصل الخلق ما اختلف اثنان**» [٢].

قال العلاّمة المجلسي رحمه الله في تبيين معنى الحديث الشريف: «**بيان:** أي يقول المتكلّمون لما أسّسوه بعقولهم الناقصة هذا ينقاد، أي يستقيم على أصولنا، وهذا لا ينقاد أي لا يجري على الأصول الكلاميّة. ويحتمل أن يكون إشارةً إلى ما يقوله أهل المناظرة في مجادلاتهم: سلّمنا هذا، ولكن لا نسلّم ذلك، والأول أظهر.

قوله عليه السلام: «**لو علموا كيف كان بدء الخلق**»، لعلّ المراد أنّ مناظراتهم في حقائق الأشياء وكيفيّاتها، وكيفيّة صدورها عن الله تعالى إنّما هو لجهلهم بأصل الخلق، وإنّما يقولون بعقولهم، ويثبتون بأصولهم مقدّماتٍ فاسدةً ويبنون عليها تلك الأمور التي يرجع جلّ علم الكلام إليها، فلو كانوا عالمين بكيفيّة الخلق

[١] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٨ / ١٨٩.

[٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢ / ١٣٢.

لما اختلفوا. ويحتمل أن يكون المراد العلم بكيفيّة خلق أفراد البشر، واختلاف أفهامهم واستعداداتهم، فلو علموا ذلك لم يتنازعوا، ولم يتشاجروا، ولم يكلّفوا احدًا التصديق بما هو فوق طاقته، ولم يتعرضوا لفهم مالم يكلّفوا بفهمه»[١].

والظاهر بقرينة المقابلة بين أصحاب الكلام وأهل التسليم أنّ المقصود من أصحاب الكلام أولئك الذين راموا فهم الحقائق بعقولهم والتمسك بالقواعد الفلسفيّة والكلاميّة من دون الرجوع إلى كلمات أهل العصمة عليهم السلام.

تدلّ الروايات الشريفة على ذمّ علم الكلام إذا لم يكن مأخذه أخبار أهل البيت عليهم السلام:

منها: رواية أبي عبيدة الحذّاء قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إيّاك وأصحاب الكلام والخصومات ومجالستهم؛ فإنّهم تركوا ما أُمروا بعلمه، وتكلّفوا ما لم يُأمروا بعلمه حتى تكلّفوا علم السماء ... » [٢]. قال السيّد بن طاووس: «ويحتمل أن يكون المراد بهذا الحديث المتكلّمين الذين يطلبون بكلامهم ما لا يرضاه الله (جلّ جلاله)، أو يكونون ممّن يشغلهم الاشتغال بعلم الكلام عمّا هو واجبٌ عليهم من فرائض الله (جلَّ جلاله)»[٣].

ولكن الأظهر أنّ المراد ذمّ علم الكلام الذي يأخذ من الأفكار والآراء غير ما صدر عن الأئمّة عليهم السلام، ويبتني على الدلائل الغريبة، والمبادي البعيدة استقلالاً عمّا هو حجّةٌ شرعيّة.

وروى **الكشّي عن عبد الأعلى** «قال قلت للصادق عليه السلام: إنّ الناس يعيبون عليَّ بالكلام، وأنا أكلّم الناس. قال: أمّا مثلك من يقع ثم يطير، فنعم، وأمّا من يقع

[١] المصدر نفسه، ١٣٢/٢ ح ٢٣ .

[٢] المصدر نفسه، ٢ / ١٣٧

[٣] المصدر نفسه، ٢ / ١٣٧

ثم لا يطير، فلا» [١].

وعن هشام بن الحكم قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام ما فعل ابن الطيّار؟ قلت: مات. قال: رحمه الله ولقّاه نضرةً وسرورًا، فقد كان شديد الخصومة عنا أهل البيت» [٢].

وعن نضر بن الصباح قال: كان أبو عبد الله عليه السلام يقول لعبد الرحمن بن الحجّاج: «يا عبد الرحمن، كلّم أهل المدينة؛ فإنيّ أحبُّ أن يُرى في رجال الشيعة مثلك ... » [٣].

فهذه الروايات إنْ دلّت فإنّما تدلّ على إذن الإمام الصادق عليه السلام لبعض تلاميذه المتخصّصين بالبحث والكلام والمناظرة، مثل هشام بن الحكم بأن يباحثوا ويناظروا، ونهي الإمام عليه السلام عن التصدّي بالبحث والكلام لمن لا خبرويّة له بهذا الفن. **روي عن الطيار** قال: «قلت للصادق عليه السلام بَلَغَني أنّك كرهت مناظرة الناس؟ فقال: أمّا مثلك فلا يكره من إذا طار يُحسن أن يقع، وإن وقع يُحسن أن يطير، فمن كان هكذا لا نكرهه» [٤].

اهتمام الإمام بإبطال مقولات الطوائف المنحرفة

الظاهر من سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه ركّز على إبطال مقولات ثلاث طوائف هي:

الطائفة الأولى: الغلاة وقد لعنهم، وتبرّأ منهم ومن مذهبهم، وأمر الشيعة بالابتعاد عنهم كالخطّابيّة الغرابيّة ورؤسائهم، كأبي الخطّاب، والمغيرة بن سعيد،

[١] المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ١٠ / ١٣٥ ؛ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٢ / ١٣٦.

[٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٢ / ١٣٦.

[٣] القمي، عباس، سفينة البحار ٧/ ٥٢٤؛ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار. ٢ / ١٣٦

[٤] القمي، عباس، سفينة البحار ٧/ ٥٢٤؛ بحار الأنوار ٢ / ١٣٦ .

وأمثالهما، ومنهم الطيّارة والمفوّضة.

الطائفة الثانية: النواصب وأعداء أهل البيت عليهم السلام، والمبتدعون، وأصحاب الرأي والقياس كأبي حنيفة وقتادة.

الطائفة الثالثة: الصوفيّة، وأصحاب هذه الفرقة المنحرفة كسفيان الثوري والحسن البصري.

ونتيجة هذا المقال أنّ الإمام الصادق عليه السلام ركّز أمر تبليغ المعارف ونشر العقائد الحقّة والصحيحة، وإعداد الطلبة الأفذاذ في علم الكلام، وهدم مباني المنحرفين وأهمّهم الطوائف الثلاث المذكورة، أعني الغلاة والنواصب وأصحاب الرأي والقياس والصوفيّة. فإنّ الدين لم يزل ولا يزال حتى اليوم يواجه مخاطر عديدة من هؤلاء المضلّين والمنحرفين، ويجب على العلماء والخطباء أن يقتدوا بإمامهم ورئيسهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ويعّرفوا الناس الحقَّ؛ لكي لا يميلوا إلى هؤلاء. والله الهادي إلى سواء السبيل.